

خُطْبَةُ الْمَوْتِ الْخُطْبَةُ الْأُولَى

عِبَادَ اللَّهِ! حَدِيثُنَا الْيَوْمَ عَنِ سَاعَةِ وَالْحِظَةِ حَاسِمَةٍ لَا تَتَكَرَّرُ، سَيَمُرُّ بِهَا كُلُّ مِنَّا، شَاءَ أَمُّ أَبِي! إِنَّهَا سَاعَةُ الْمَوْتِ! وَالْإِنْتِقَالَ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ، قَالَ اللَّهُ -جَلَّ فِي عُلَاهُ-: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ}؛ فَالْمَوْتُ نَهَايَةُ كُلِّ مَخْلُوقٍ:

كُلُّ ابْنِ أَنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ	يَوْمًا عَلَى آلِهِ حَدْبَاءَ مُحْمُولٍ
--	---

فَسَاعَةُ الْمَوْتِ، سَاعَةٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ -كَائِنًا مِنْ كَانَ- أَنْ يُؤَخِّرَهَا عَنْ نَفْسِهِ، أَوْ غَيْرِهِ، وَلَوْ لِسَاعَةٍ، حَتَّى يَتَذَارَكَ مَا فَاتَهُ، وَيُصَحِّحَ مِنْ أَوْضَاعِهِ، قَالَ اللَّهُ: {فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ}؛ فَهِيَ تَأْخُذُهُمْ بَعْتَةً وَهُمْ فِي جَدَالِهِمْ وَخِصَامِهِمْ فِي مُعْتَرِكِ الْحَيَاةِ، لَا يَتَوَقَّعُونَهَا، وَلَا يَحْسِبُونَ لَهَا حِسَابًا، فَإِذَا هُمْ مُنْتَهُونَ، كُلُّ عَلَىٰ حَالِهِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا، لَا يَمْلِكُ أَنْ يُوصِيَ لِمَنْ بَعْدَهُ، وَلَا أَنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ، فَيُوصِيهِمْ بِمَا فِيهِ مَصَالِحِهِ وَإِنْقَادِ نَفْسِهِ.

وَهَذَا إِذْ ذَارُ لِأَهْلِ الْعُقَلَةِ الَّذِينَ غَفَلُوا عَنِ الْمَوْتِ، وَشَغَلَتْهُمْ الدُّنْيَا عَنْ تَذْكِرِهِ، فَفَاجَأَهُمُ الْمَوْتُ؛ فَلَا يُسَعِفُهُمُ الْوَقْتُ لِیُصْلِحَ مَا يُمَكِّنُ إِصْلَاحُهُ؛ فَالْمَوْتُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَبِطَّهُ مِنَّا أَحَدٌ؛ فَلَا أَحَدٌ يَعْلَمُ مَوْعِدَ رَحِيلِهِ مِنَ الدُّنْيَا، وَلَيْسَ لَهُ بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ عَمَلٍ وَلَا تَوْبَةٍ وَلَا اسْتِذْرَاكِ شَيْءٍ وَلَا تَصْحِيحٍ وَضَعٍ.

سُبْحَانَ اللَّهِ! إِذَا نَزَلَ الْمَوْتُ لَا يَسْتَطِيعُ الْوَاحِدُ مِنَّا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ، فَكَيْفَ إِلَىٰ فِعْلٍ يَحْتَاجُ إِلَىٰ زَمَانٍ طَوِيلٍ مِنْ أَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ وَرَدِّ الْمَظَالِمِ، وَاخْتِيَارِ التَّوَصِيَةِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْكَلِمَاتِ، يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَىٰ أَهَمِّ الْكَلِمَاتِ؛ فَإِنَّ الْحَاجَةَ فِي وَقْتِ الْمَوْتِ إِلَىٰ التَّوَصِيَةِ أَمْسُ وَالتَّنْكِيرِ فِي التَّوَصِيَةِ لِلتَّعْمِيمِ؛ فَلَا يَقْدِرُ عَلَىٰ تَوْصِيَةِ مَا، وَلَوْ كَانَتْ بِكَلِمَةٍ يَسِيرَةٍ، وَلَئِنْ التَّوَصِيَةَ قَدْ تَحْصُلُ بِالْإِشَارَةِ، فَالْعَاجِزُ عَنْهَا عَاجِزٌ عَنْ غَيْرِهَا، قَالَ -تَعَالَى-: {وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ}، بَيَانٌ

لِشِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَى التَّوَصِيَةِ؛ لِأَنَّ مَنْ يَرْجُو الْوُصُولَ إِلَى أَهْلِهِ قَدْ يُمْسِكُ عَنِ الْوَصِيَّةِ لِعَدَمِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا، فَإِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ مَعَ الْحَاجَةِ دَلَّ عَلَى غَايَةِ الشَّدَّةِ.

وَقَالَ -تَعَالَى-: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}، فَسُؤَالَ الرَّجْعَةِ فِي الْآيَةِ لَيْسَ حَاصًّا بِالْكَافِرِ، بَلْ يَعُمُّ كُلَّ مُفْرَطٍ، فَيُخْبِرُ اللَّهُ -تَعَالَى- عَنِ حَالِ مَنْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ، مِنْ الْمُفْرَطِينَ الظَّالِمِينَ، أَنَّهُ يَنْدَمُ فِي تِلْكَ الْحَالِ، إِذَا رَأَى مَالَهُ، وَشَاهِدَ قُبْحَ أَعْمَالِهِ فَيَطْلُبُ الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا، لَا لِتَمَتُّعِ بِلَذَائِهَا وَافْتِطَافِ شَهَوَاتِهَا وَإِنَّمَا ذَلِكَ كَمَا قَالَ -تَعَالَى-: {لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ} مِنْ الْعَمَلِ، وَفَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ. {كَلَّا}، أَي: فَلَا رَجْعَةَ لَهُ وَلَا إِمْهَالَ، فَقَدْ قَضَى اللَّهُ أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ، {إِنَّهَا}، أَي: مَقَالَتُهُ الَّتِي تَمَّتْ فِيهَا الرُّجُوعُ إِلَى الدُّنْيَا، {كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا}، أَي: مُجَرَّدُ قَوْلٍ بِاللِّسَانِ، لَا يُفِيدُ صَاحِبَهُ إِلَّا الْحَسْرَةَ وَالنَّدَمَ.

{وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}، أَي: حَاجِزٌ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَفِي هَذَا الْبَرْزَخِ، يَتَنَعَّمُ الْمُطِيعُونَ، وَيُعَذِّبُ الْعَاصُونَ، مِنْ ابْتِدَاءِ مَوْتِهِمْ وَاسْتِقْرَارِهِمْ فِي قُبُورِهِمْ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، فَلْيَعُدُّوا لَهُ عُذَّتَهُ، وَلْيَأْخُذُوا لَهُ أَهْبَتَهُ.

فَفَكِّرْ يَا عَبْدَ اللَّهِ! فِي هَذِهِ السَّاعَةِ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ شَهْوَتِكَ وَمَحَابِّكَ، وَانْقَطَعَتْ عَنْكَ فُرْصَةُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَهَجَمَتْ عَلَيْكَ الشَّدَائِدُ الْعِظَامُ، وَوَقَعَتْ فِي الْأَخْطَارِ الْجِسَامِ، فَنَادَيْتَ عِنْدَ ذَلِكَ نَادِمًا: {رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ} فَلَمْ يُجِبْ نِدَائُكَ، وَلَمْ تُعْطَ سَاعَةً وَاحِدَةً تَتُوبُ فِيهَا إِلَى اللَّهِ -تَعَالَى- وَتَسْتَرْضِيهِ.

وَلْيَكُنْ يَا عَبْدَ اللَّهِ! هَذَا النِّدَاءُ {رَبِّ ارْجِعُونِ} عَلَى بَالِكَ طَالَمَا أَنَّكَ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ؛ لَا تَغْفَلَ عَنْهُ أَبَدًا؛ فَإِنَّهُ إِذَا بَاشَرَ الْقَلْبَ أَحْدَثَ فِيهِ خَوْفًا شَدِيدًا؛

فَحَصَلَتْ بِعَوْنِ اللَّهِ -تَعَالَى- وَانْخَلَعَ الْعَبْدُ مِنَ الْمَعَاصِي، وَبَادَرَ بِالصَّالِحَاتِ سَاعَةَ الْأَجَلِ.

وَقَالَ -تَعَالَى-: {وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا}، فَلَا جَالَ لَا مَجَالَ فِيهَا لِلتَّأْجِيلِ؛ فَهِيَ مَحْتَوَمَةٌ، مُحَدَّدَةٌ مَوْقُوتَةٌ، فَكُلُّ غَافِلٍ وَمُفَرِّطٍ يَنْدَمُ عِنْدَ الْإِحْتِضَارِ، نَدَمًا لَا يُجْدِي، وَيَسْأَلُ أَنْ يُطَالَ فِي عُمُرِهِ، وَلَوْ بِشَيْءٍ يَسِيرٍ؛ لَيْسْتَ تَدْرِكُ مَا فَاتَهُ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! وَكَانَ مَا كَانَ، وَأَتَى مَا أَتَى وَكُلُّ بِحَسَبِ تَفْرِيطِهِ، وَمُحْتَضِرٌ يَفِيقُ إِفَاقَةً وَيَنْتَبِهُ انْتِبَاهًا لَا يُدْرِكُهُ مَنْ حَوْلَهُ، انْتِبَاهًا لَا يُوصَفُ، وَيَقْلُقُ قَلْقًا لَا يُتَصَوَّرُ، وَيَتَلَهَّفُ حَسْرَةً عَلَى زَمَنِ الْمَاضِي، وَيَتَمَنَّى لَوْ تَرَكَ كَيْ يَتَدَارَكَ مَا فَاتَهُ بِإِعْلَانِ تَوْبَةٍ، لَعَلَّهَا تُنْقِذُهُ وَمِنْ عَذَابِ اللَّهِ تُخَلِّصُهُ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! لَقَدْ فَرَطَ فِي زَمَنِ الْعَمَلِ، وَتَسَاهَلَ فِي فِتْرَةِ الزَّرْعِ، مَعَ أَنَّ النَّذِيرَ قَدْ جَاءَهُ وَالتَّحذِيرَ قَدْ وَصَلَ إِلَى مَسَامِعِهِ، وَلَكِنَّ التَّسْوِيفَ وَالتَّأْجِيلَ وَطُولَ الْأَمَلِ وَالْخُضُوعَ لِإِبْلِيسَ، حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ وَسُرْعَةِ الْأُوبَةِ وَالرَّجْعَةِ!

وَلَوْ اسْتَشَعَرَ الْعَاقِلُ وَهُوَ فِي أَوَانِ عَافِيَتِهِ تِلْكَ السَّاعَةَ، لَحَصَلَ كُلُّ مَقْصُودٍ، وَنَالَ كُلَّ مَطْلُوبٍ، فَطَالَمَا نَعْلَمُ أَنَّ سَنَدَمَ عَلَى مَا فَرَطْنَا فِي جَنْبِ اللَّهِ، وَأَنَّنَا سَتَّحَسَّرَ عَلَى ذُنُوبِنَا؛ فَلِمَ إِذَا لَا نُبَادِرُ قَبْلَ الْفَوَاتِ؟ وَنَسْتَعِدُّ لَهُ غَايَةَ الْإِسْتِعْدَادِ.

أَحْسَنَ اللَّهُ بِنَا أَنْ الْخَطَايَا لَا تَفُوحُ	فَإِذَا الْمَسْتُوْرُ مِنَّا بَيْنَ ثَوْبِيهِ فَضُوحُ
كَمْ رَأَيْنَا مِنْ عَزِيزٍ طُوِيَتْ عَنْهُ الْكُشُوحُ	صَاحَ مِنْهُ بِرَحِيلٍ طَائِرُ الدَّهْرِ الصَّدُوحُ
سَيَصِيرُ الْمَرْءُ يَوْمًا جَسَدًا مَا فِيهِ رُوحُ	بَيْنَ عَيْنِي كُلِّ حَيٍّ عِلْمُ الْمَوْتِ يَلُوحُ
كُلْنَا فِي غَفْلَةٍ، وَالْمَوْتُ يَغْدُو وَيَرُوحُ	كُلُّ نَطَاحٍ مِنَ الدَّهْرِ لَهُ يَوْمٌ نَطُوحُ
نُحْ عَلَى نَفْسِكَ يَا مَسْكِينُ إِنْ كُنْتَ تُنُوحُ	لَتَمُوتَنَّ وَلَوْ عَمَّرْتَ مَا عَمَّرَ نُوحُ

اللَّهُمَّ أَحْسَنَ خَاتِمَتَنَا وَتَوَفَّنَا وَأَنْتَ رَاضٍ عَنَّا غَيْرَ غَضْبَانَ، اللَّهُمَّ رُدَّنَا إِلَيْكَ رَدًّا جَمِيلًا. أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَلِيِّ الْعَظِيمَ لِي وَلَكُمْ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ؛ فَاسْتَغْفِرُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ.

الخطبة الثانية

عباد الله! عَلَيْنَا أَنْ نَسْتَعِدَّ لِلْمَوْتِ حَقَّ الاستعداد، وَأَنْ نَصْحَى مِنْ هَذِهِ الْعَفْلَةِ وَنَفِيقُ مِنْ هَذِهِ الْعَفْوَةِ، وَقَدْ نَبَّهَنَا اللهُ بِقَوْلِهِ: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَعْرُضُونَ}، فَأَلَايَاتُ فِيهَا النَّذْرُ وَالْحَسْرَةُ مِنَ الظَّالِمِ عِنْدَ اقْتِرَابِ الْمَوْتِ وَرُؤْيَا الْعَذَابِ تَتَابَعَتْ فِي الْقُرْآنِ، كَمَا قَالَ -تَعَالَى-: {وَمَنْ يُضِلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ}، فَيَا لَهُ مِنْ مَرَأَى وَمَنْظَرٍ فَظِيعٍ وَصَعْبٍ شَنِيعٍ، بِظُهُورِ النَّدَمِ الْعَظِيمِ، وَالْحُزْنِ الَّذِي لَا يُضَاهِيهِ حُزْنٌ عَلَى مَا سَلَفَ، يَا لِعِظَمِ تَعْبِيرِ الْقُرْآنِ: {وَيَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ}، أَيْ: هَلْ لَنَا مِنْ طَرِيقٍ أَوْ حِيلَةٍ حَتَّى نَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا لِنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ طَلَبُ مُحَالٍ أَنْ يَتَحَقَّقَ أَجَارَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْ ذَلِكَ.

فَأَدِم -أَيُّهَا الْمُسْلِمُ- التَّفَكُّرَ فِي الْمَوْتِ، وَاجْعَلْ تَحْتَ نَازِلِكَ النَّارِ، وَسَتْرَاهَا عِيَانًا يَنْخَلِعُ مِنْهَا الْقَلْبُ؛ فَأَنْتَ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ- مَوْقِنٌ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتَعَلَّمُ أَنَّهُ حَقٌّ لَا مَرِيَةَ فِيهِ، فَتَيَقِّظُ قَبْلَ أَنْ يُفَاجِئَكَ هَوْلُ الْمَوْتِ وَسَكَرَتُهُ، وَيَحُلُّ بِكَ أَلَمَ الْفَوْتِ وَحَسْرَتُهُ، وَتُوضَعُ فِي حُفْرَةٍ، إِمَّا أَنْ تَكُونَ مُنِيرَةً أَوْ مُظْلِمَةً، إِنَّ هُنَاكَ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يُحِبُّ ذِكْرَ الْمَوْتِ وَلَا ذِكْرَ الْقُبُورِ، وَذَلِكَ وَرَبِّي مِنْ تَلْبِيسِ إِبْلِيسَ، حَتَّى يَعِيشَ فِي غَفْلَةٍ؛ لِذَا: يَقُولُ الرَّسُولُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ- فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «فَزُورُوهَا؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْآخِرَةَ»؛ فَلَا يَعْشَنُ بِكَ الشَّيْطَانُ، فَالْقَبْرُ لَا بُدَّ أَنْ تَأْتِيَهُ شِئْتِ أَمْ أَبِيتِ؛ فَلَا تَخْدَعُ نَفْسَكَ، وَلَا تَعْضُ الطَّرْفَ عَنِ حَقِيقَةِ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مَائِلَةً أَمَامَ عَيْنَيْكَ.

أَحْسَنَ اللهُ خَاتِمَتَنَا.